صانعات الفرح ..
كالشمس كالحياة

سميحة الحوسنية

بدأت خيوط الفجر تنسدل على جدائل الصباح.. فكانت تراتيله الطاهرة وهدوؤه الذي يفعم المكان، وكان صياح الديكة الذي تستيقظ معه (زيانة) لتبدأ صباحها الريفي في تجهيز (الريوق) لزوجها (خميس) الذي يصحو مبكرًا لتساعده في دفع (الشاشة الخشبية) إلى البحر ليبدأ صباحاته في قلب البحر ليصطاد السمك.

تقوم (زيانة) بترتيب الفراش المبلل بالطلة الجميلة التي جاءت لتلطف حرارة الجو في ذلك القيظ الملتهب ولتهنأ الأجساد ببرودتها، وقد نثرت عليه الياسمين في مسائها ليعبق طول الليل وهي ترنو النظر إلى صغيرات النجوم يتراقصن بالنور.. يطاردهن الدب الكبير فيختفين خلف ستار الظلام.

وعندما تستيقظ (زيانة) يستيقظ كل من حولها، فتلك الأصوات العالية التي تصدر من الأواني المعدنية الناعسة كل صباح لتشعر المارة باستيقاظها وصوت (العسو) وهي تنظف (الحوش) وتنفض الغبار من على وجه المخدات وبساطها المتواضع، فما أجمل صباحاتها المفعمة بالنشاط والحيوية وهي تستمع إلى المذياع وهو يصدح بآيات القرآن الحكيم بصوت القارئ (عبدالله خياط) - رحمه الله - وقد بدأت في تجهيز العجين لتصنع الخبز العماني (الرخال)، فما أزكى تلك الرائحة التي تنبعث من بيتها والتي تمتزج وتطير مع نسمات البحر.

كثير ما كانت (زيانة) ترسم أحلامها على وجه (الطوبي) وتستحضر لحظات ابتعاثها إلى مملكة البحرين للدراسة وممارستها لمهنة

Text.indd 110 07/07/2022 9:12 AM

التمريض - حينذاك - فكانت تقطن مع جدتها في المملكة فهي تنتمي لأم بحرينية والتقاؤها ب(خميس) هناك ليصحبها معه بعد سنوات في كنف الغربة إلى البلاد، فتزوجها وبعد سنة توفي أبوها لتعود والدتها إلى البحرين لتعيش ما بقي من عمرها مع عائلتها.

كانت (زيانة) تبتسم للكثير من المواقف التي صادفتها في الحياة وهي تتحدث إلى (الطوبي) ويرد عليها كلما أيقظته برشات الماء الباردة تارة يقهقه وتارة يتشوق لإكمال ثرثرتها اليومية.

(زيانة) تفعم صباحاتها بالحياة ويسعد بحديثها صغار الحارة الذين يتحلقون حولها عندما تخبز وترطن إليهم باللغة الإنجليزية لتلطف الجو، فترتسم على محياهم الفرحة فيقهقهون ويطلبون منها الترجمة (أماه زيانة كيف تعرفي عنجريزي) لتتعالى ضحكاتها هي الأخرى من عفويتهم.. وقد أطلقوا على دولابها الذي وضعته في (الحوي) بكنز علي بابا وكثيرًا ما تتجه انظارهم بعد تناول الخبز الممزوج بالبيض والسمن العماني إلى ذلك الدولاب المليء بالحلويات وأنواع البطاطس والبسكويتات المقرمشة التي تنال ذائقتهم والتي يكون لهم نصيب منها كلما قدموا لزيارتها.

(زيانة ذات الستين عامًا لم ترزق بالأطفال ولكنها أمٌ لكل أبناء الحارة (ماه زيانة) هكذا يطلق عليها الجميع، حيث شهدت ولادتهم وأبصروا النور على يديها، فكانت (الداية والوسّامة ومعلمة القرآن) في آنٍ واحد.. ولا يوجد بيت في الحارة لم يتذوق طعم خبزها الحار والذي تتفنن في صنعه.. وكثيرا ما كانت تعلم نساء القرية صناعة الخبز ويأتين إليها، كلما تمزقت رقائق الخبز في لحظات عناد (الطوبي) ويجدن متعة حقيقية في الخبز الجماعي أيام الأعياد، فتمتلئ الأجواء برائحة الخبز الزكية في وقت الصباح وما يصاحبها من ضحكات وثرثرات نساء يعشقن الحياة.

لم يكن شهر (يناير) يحمل المفاجآت السارة لـ (زيانة) التي كانت تعاني بين الفينة والأخرى من ألم شديد يصوّب سهامه نحو جسدها النحيل، فكانت علامات المرض بدأت تغير ملامحها وتختلط مع ابتسامتها التي تخفي معاناة سهر ليالٍ متعبة وحدها تعيش تحت قناديل المساء المعلقة في ظفائر عمرها المتبقي.. بدأ الألم يزداد يومًا بعد يوم وذات صباح سمعت جارتها (سلامة) أنينها يصاحب صياح الديكة، حيث كان (خميس) في رحلة الصيد.. عندما دخلت عليها وجدتها ملتفة بـ(برنوس من الصوف) وهي ترتجف من الحمى فنادت جاراتها وهرع كل من في القرية لبيتها ولاصطحابها إلى المستشفى وهناك كانت الصدمة، فـ (زيانة) تعاني من مرض (السرطان الذي طالت مخالبه جسدها) لتنام على أسرّة المستشفى وتتعالى أوجاعها وهمومها.

مضت الأيام و(خميس) وكل من في القرية يعتصرهم الحزن على (زيانة) وما أصابها من مرض بدأت ملامحها تتغير وجسدها يلاصق الفراش من هزله وبدأت خصلات شعرها تتساقط من على السرير كشلالٍ حزين.. وأخذت صور الماضي تتأرجح في مخيلتها كبرق لامع يرسم الابتسامة على محياها وقد تحجر الدمع في مقلتيها.. بعد مرض (زيانة) بأيام جاءت عائلتها من البحرين بعد أن سمعوا خبر مرضها لإصطحابها، فأمها طريحة الفراش تود رؤيتها ولتتلقى العلاج في أحد المستشفيات التي يعمل فيها خالها (دكتور) هناك، وما إن خرجت (زيانة) من بيتها الذي كانت تلامس أسقفه وجدرانه الطينية بنظراتها المكلومة حتى سقطت دمعتها الملتهبة على وجه (الطوبي) لتلامس صقيع وجهه المحروق، و تحلق أبناء الحارة أمام بيتها البسيط لوداعها وقد وقف تاكسي الحاج (خلفان) لأخذهم إلى المطار، فكان مشهدًا حزينًا تتحدث فيه النظرات والتنهدات والصرخات والبكاء يدمي اللحظات.

لوحت (زيانة) بيديها لكل أهالي القرية وعيناها محمرتان كجمر ملتهب بحرارة الوداع ليرافقها (خميس) في تلك الرحلة الصعبة، فـ(زيانة) لم تغادر الحارة منذ سنوات.

كانت الساعة الثالثة صباحًا حين رنّ الهاتف في منزل الحاجة (نصرى) أخت (خميس) التي كانت تصلي وتدعو الله أن تعود (زيانة) بخير وعافية، ولكن هي المنية وإنقضاء الأجل فكان الخبر المؤلم.. غادرتنا روحها الطاهرة.. استيقظت القرية على صراخ (نصرى) فكان الحزن العميق.

Text.indd 111 07/07/2022 9:12 AM